الرياض الأحد ٢٨ شوال ١٤١٩هـ - ١٤ فبراير ١٩٩٩م - العدد ١١١٩٢ - السنة الخامسة والثلاثون

الأمير عبدالله.. أنموذج السياسي المُتمكن

بقلم
محمد الجحلان

■ للسياسة وجهٌ آخر، غير الذي نعرفه.

لها وجه لايزال نقياً براقاً صادقاً.

انه ذلك الذي ارتبط بالأصالة وبالمبادىء وبالأخلاق، ولم يستسلم فقط للعبة «فن الممكن» تلك التي باتت تسمم أكثر المواقف، وتحركها ذات اليمين وذات الشمال، لتفرض نوعاً من الأدبيات الخاصة، التي لا يمكن بحال إحالتها الى ماسوى الأعراف السياسية المتفق عليها.

و«عبدالله بن عبدالعزيز» هو أحد أولئك القلائل الذين وهبوا السياسة وجهها الآخر، وجهها الذي ارتبط بالأصالة والأخلاق. فهو يمارسها كرجل دولة، في نفس خانة فضائل الفرسان، ولعله الوحيد الذي استطاع ان يحركها داخل قالب الفروسية بكل قيمهاوخصالها النقية.

قد يبدو الأمر صعباً للغاية، وهو بالفعل كذلك، فمن العسير ان تكون سياسياً في عالم تحكمه ديبلوماسية المراوغات، وهواية المصالح، وفارساً يحتكم الى أخلاق الفرسان وأدبياتهم..

انها المعادلة الأكثر صعوبةً، ان لم تكن الأكثر استحالةً غير ان سموه، وهو الرجل الذي ينطلق من مرجعية بالغة النقاء، ويقدم نفسه لعالم السياسة، بمثل نصاعة وبياض الثلج، دون ان يخشى ان يقتفي اثره أحد، إيماناً وثقة بسجل سياسي طويل، لا مكان فيه لغير المواقف النقية والصادقة والصريحة، استطاع ان يضع بين أيدينا أنموذجا آخر لرجل السياسة، وهو أنموذج السياسي الفارس، الذي لا يوارب ولا يماري، ولا يُصانع.

ففي كل مرة يقدم «عبدالله بن عبدالعزيز» الدليل على امكانية الربط ما بين غمار السياسة، والأدبيات الأخلاقية، التي تتشرب من تعاليم الاسلام، وقيم العروبة بشكل مثير للدهشة. وموقف سموه مؤخراً في مطار عمان، اثناء ترؤسه لوفد المملكة في تشييع جنازة الملك حسين، تجلى فيه الرجل الانسان بكل عواطفه، وصدقه، هو جزء من الصورة التي تكشف ذلك المعدن الانساني النفيس لسموه الكريم في عالم طغت فيه لغة حسابات المصالح، على القيم الأخلاقية، وهو أيضا جزء من منظومة طويلة من الفضائل، التي تتركب منها شخصية سموه، والتي جعلت منه ذلك الطراز النادر من الساسة، الذين يبعثون الثقة والمصداقية، والطمانينة في كل شأن يقع تحت طائلة مسئولياتهم، أو يعلنون التصدي لها.

لقد اشتُهر «عبدالله بن عبدالعزيز» بانه رجل المواقف عندما تحتاج الأمة الى موقف.

اشتهر بانه ذلك الفارس، الذي يتمتع باخلاقيات الفرسان، وأدبياتهم النبيلة، تلك التي تاخذهم حيث تشاء العزة والأنفة؛ حيث يشاء الجَلَد والصبر والعزيمة وقوة الاحتمال.

لكنه ظل كبيراً، بل أكبر وأكبر، في قاعة التشريفات الملكية بمطار الملكة علياء الدولي في العاصمة الأردنية عمّان، وهو يواجه عدسات وأسئلة الصحفيين، بعاطفة صدق على فراق فقيد الأمة، الملك حسين.

ظل كبيراً لأنه ارتفع فوق صغائر السياسة ومفارقاتها وخلافاتها، ليكون ذلك الإنسان العربي المسلم، الذي يحزن بحرقة لفراق أخيه.

وظل كبيراً، لأنه رجل من طراز خاص ونادر، فهو دوماً الأكثر نقاءً، والأكثر وضوحاً، والأكثر شفافية.

فهو الإنسان، في مواجهة حقائق الموت والحياة، والعاطفة والبسمة، والرأفة والحزم.

وهو رجل الدولة، في موضع تمثيل بلاده، وانتزاع حقوقها، ورفع رايتها.

وهو ذلك الفارس البدوي.. الذي بزغ من الصحراء، ليؤدي العرضة، بنشوة المحاربين القدامى، فيستصرخ شنشنة الطبول باتجاه وقع خطواته الواثقة، مثلما يستدعي بشهامة، شعاع الشمس جهة سيفه الصارم الذي يومض بكبرياء النصر.

هو ذلك الرجل الذي لا يخلط الأدوار.

ولا يعرف المواربات، أو المداهنات.

لقد أخذ من الصحراء صلابتها، وبُعد أغوارها.. ومن نفلها وقيصومها وخزاماها عطرَ الوفاء.

ومن أقاحيها البياض، ومن ربيعها الطيب والكرم، ومن جدبها التدبير والحساب، ومن سكونها الهدوء، ومن رعدها وبرقها الغضب ضد الظلم ولحساب الحق.

هل شاهدتموه أثناء مناورة للحرس الوطني في حائل وكنت وقتها مع الأستاذ تركي السديري رئيس التحرير عندما انهمر المطر بغزارة في يوم الاحتفال وظن الجميع أن الحفل سيتأجل، أو على الأقل أن المحتفى به سيتأخر ولكنه كعادته جاء بنفس الموعد، بل في نفس الدقيقة وعندما بدأ الحفل أراد المنظمون اختصاره بعرضة قصيرة لشدة هطول الأمطار، لكنه فاجأ الجميع بمشاركة الأهالي عرضتهم، وعندما تقدم إليه أحد الضباط بمظلة واقية عن المطر أشار إليه بالانصراف، واستمر في العرضة مع الأهالي مشاركاً معهم نشوة الفرح والالتقاء.

وهل شاهدتموه داخل المخيم في نفس المناسبة عندما تقدم إليه رجل كبير طالباً منه إخراج ابنه من السجن في محكومية قصاص، ارتعد قائلاً: اطلب ابني متعب وجميع مالي، وغير ذلك فإني أخاف الله.

لقد توقف مراسلو المحطات التلفزيونية في مطار الملكة علياء - مساء يوم الأحد الماضي - أمام سموه الكريم، وهو يَجبُر تلك المسافات الإنسانية مابين قيادة هذا الوطن، والقيادة الأردنية، بعاطفة نبيلة هي أصدق من كل العبارات، وهي أقوى من كل التعابير، وهي أبلغ من كل منتجات المنابر، عاطفة أخوة.. لتختصر جملة العلاقات وجملة المشاعر، بانها تلك التي لا يمكن أن يطالها غبش السياسة، ولا وزر الاختلافات، وأنها ذلك الوعاء الإنساني، الذي يستوعب أشد الاختلافات ويصهرها في عمق العاطفة الأسمى، عاطفة الحب، طالما كان الفقيد أخاً عربياً مسلماً.

إن حسّ سموه العروبي والإسلامي، لا يحتاج إلى إقامة الشواهد عليه.. فهو قطعاً ذلك الفارس العربي الأصيل، الذي تشرب منذ نعومة أظافره، قيم العروبة النقية، وترجمها بلغته الخاصة، التي استهدفت دائماً رأب الصدع العربي، ولمّ الشمل، وتوحيد الصف والكلمة.

هكذا كان ومازال دأبه وسيظل.

فلم يترك مناسبة إلا وراح يحلّق خلالها في الفضاء العربي، باحثاً عمّن يضع يده بيده ليضيف إلى شعلة الحلم العربي الذي يراود أبناء الأمة، إزاء وحدة الصف، حتى خلال تلك الفترات الجارفة، التي فقد فيها أكثر المتفائلين، قدرتهم على الصمود، أمام حمّى القطيعة والتمزق، ظل وحده منتصباً كما يليق بفارس، يواكب الضمائر العربية، ويستنهض فيها اللُّحمة، إيماناً بوحدة المصير.

أما بعد.

فحين يكون للعاطفة حساب - هكذا - في مُقل وقلوب الكبار، وأمام تلك المسؤوليات الجسام، مثل تلك التي يتصدى لها «عبدالله بن عبدالعزيز» ليس على مستوى الوطن وحده، وإنما على مستوى الأمة والعالم، حين يكون الأمر كذلك، فهذا يعني أن جوهر الإنسان هذا الذي يوقظ في النفوس معاني السمو العاطفي، ويمهرها بانقى العلائق الإنسانية، هو الأكثر جدارة برش عطر الوفاء في أركان هذه الأرض، وهو الأجدر أيضاً بإعادة صياغة الحلم العربي والإسلامي، بطريقة لا مكان فيها للانكسارات والخيبات.

طالما كان ثمة فارس بمثل هذا الطراز.

وطالما كان ثمة رجل بمثل هذا التسامي.

وطالما كان ثمة نبل بمثل هذه القيمة.

طالما كان هذا، فسيظل كل الأفق مفتوحاً قبالة شواطئ الأخوّة الصادقة، الأخوة في الله، وفي الدين، وفي العروبة، مهما ادلهمّت سماوات العروبة بالخطوب، وانقضاض الخلاف والاختلاف، ومهما حاول الطامعون النيل من هذه الأمة، وتاريخها المضيء بسير رجالاتها المخلصين.

هل سمعتم «عبدالله بن عبدالعزيز» ذلك المساء وهو يقول: «لن نفرط في الأردن.. وسنفديها بالأرواح».

إنه يجترح بلسان الأخوّة.. والأخوة وحدها تلك المفردة التي بتنا نرددها بلا معنى، حين نصف بعضنا في الدول العربية بـ «الشقيقة» ياخذها ليترجم بها معنى الأخ الشقيق، ذلك الذي نتّحد معه في الدم، إلى جملة معبرة تعني ما تقول.

بل هو يكتسح بها لغة المصالح المتبادلة، رغم مشروعيتها، ليصل بها بالتالي إلى ذلك البعد الأخوي، الذي لا نستشعره إلا مع من نرتبط بهم بوحدة الحسب والنسب، حينما تعصف بهم النوائب!.

والفداء، لا يكون إلا حينما يصبح الشعور قضية.. وشعور الأخوّة عند الأمير الفارس، ليس مجرد قضية، وإنما هو موقف وقضية، بقي يقيم على نسيجهما خطوط علاقاته باشقائه في العروبة وفي الإسلام، رغم كل تلك العواصف المادية، التي طمست بعض ملامح تلك العلاقة عند الكثيرين، لكنه ظل وحده مؤمناً بها، لأنه يعرف ان كل الطرق مهما طالت أو استطالت، ومهما تعددت انحناءاتها، ستعود في النهاية، إلى تلك الحقيقة الكبرى، التي لا مكان للعزاء فيها بغير ما مشاعر الأخوة، وبغير ما عواطف جياشة لدى فارس صادق أصيل.